



ناظرة المدرسة

لنظرة نبكوف

بقلم الأستاذ محمد قطب

مدرسة بل كادت تنساء ... لقد كان لها — ذات يوم —
والد والدة وكانا يسكنان في موسكو في منزل نخم. ولكن
لم يبق في ذاكرتها من هذا كله إلا أشياء غامضة باهتة
كطائف الأحلام فقد مات أبوها وهي في العاشرة من عمرها
وماتت أمها على أثره. وكان لها أخ ضابط في الجيش وكان يتراسل
بين الحين والحين، ولكن أخاها قطع عنها مراسلاته ولم تعد تعلم
عه شيئاً. ولم يبق لها ما يربطها بالماضي البعيد إلا صورة لأبها ...
وحتى هذه قد بهتت معالمها من أثر الرطوبة في المدرسة ولم يبق
سها إلا شعر الرأس والحاجبان.

كانت ماريا — في أثناء الطريق — تفكر في مدرستها وفي
الامتحان الذي سيقع في القريب وفي البنات والأولاد الأربعة
الذين سترسلهم إليه. وبينما هي مسترسلة في أفكار الامتحان
أدركها أحد الجيران من كبار الملاك — رجل يدعى هانوف —
في عربة تجرها أربعة جياد وكان هو بعينه الرجل الذي امتحن
تلاميذها في العام الفائت. فلما رآها عرفها وأخفى لها محبياً وهو
يقول: « صباح الخير. أنت عائدة إلى المدرسة فيما أظن »
كان هانوف هذا في الأربعين من عمره؛ رجلاً بارداً الماطفة
يسدو في وجهه أثر الإجهاد، وكان الهرم قد بدأ يدب إليه ولكنه
مع ذلك وسيم محبوب من النساء.

وكان يعيش في منزله الكبير بمفرده — ولم يكن موظفاً —
وكان الناس يقولون عنه إنه لا يصنع شيئاً في المنزل إلا أن يروح
ويجيء في الفرقة وهو يصفر بنفسه أو يلعب الشطرنج مع سائق
عربته ويقولون كذلك إنه مدمس للشراب، وهذا حق،
فقد كانت الأوراق التي أحضرها معه في الامتحان تفوح برائحة
الغور ... وقد كان في ذلك اليوم مرتدياً ملابسه الجديدة وبدأ في
عيني ماريا وجهها جذاباً، وكانت طوال جلستها إلى جانبه في غمرة
من الانفعالات والأحاسيس. لقد تعودت أن ترى متحنيين غلاظاً
جفاة، وآخرين معقولين معتدلين، ولكن هذا كان نموذجاً فريداً
فلم يكن يدري في أي موضوع يسأل! ولم يكن يعطى التلاميذ
أقل من الدرجة النهائية!

قال موجهها كلامه إلى ماريا فاسيلقينا: « إنني ذاهب لزيارة
باكفت ولكني أخبرتك أنه ليس في المنزل »

في منتصف الساعة التاسعة خرجت العربة من المدينة. وكان
الطريق الجبلي جافاً ونحس أبريل الضاحية المشرقة تنشر الدفء
والبهجة وإن كان الجليد ما زال باقياً في الحفر وفي ثنايا الغابات،
فقد انتهى الشتاء المظلم الطويل ولما يكبد، وطلع الريح بقاءة على
غير انتظار. ولكن الدفء الجليل ومنظر الغابات الشفافة التي
أنسنتها نسائم الريح الدافئة، والطيور المحلقة في جماعات كبيرة
فوق المستنقعات العظيمة التي تبدو كالبحيرات، والسما الصافية
الرائقة التي تبعث الرغبة في الإنطلاق، وتخيل للانسان أن يرتقى
إليها صعداً قيوعاً في أرجائها الفسيحة ... كل أولئك لم يكن ليبحث
معنى واحداً جديداً في نفس « ماريا فاسيلقينا » التي كانت تجلس
في العربة. فهي ناظرة مدرسة منذ ثلاث عشرة سنة، ولا يستطيع
أحد أن يحصى عدد المرات التي ذهبت فيها إلى المدينة لتقبض راتبها.
وسواء كان الوقت ربيعاً كما هو الحال اليوم، أو كان يوم خريف
ممطر أو شتاء مظلم، فلا فرق لديها أبداً. وهو إحساس واحد
يختلج في نفسها كل مرة: هو التطلع إلى إنهاء هذه الرحلة بأسرع
ما يكون.

وخيل إليها أنها تعيش في هذا المكان منذ أجيال طويلة وآماذ
بميدة، وخيل إليها أنها تعرف كل صخرة وكل شجرة في الطريق
من المدينة إلى المدرسة، لقد كان هنا ماضيها وحاضرها. ولا يستطيع
أن تتخيل لها مستقبلاً آخر غير المدرسة والطريق إلى المدينة والعودة
إلى المدرسة وهكذا ... إلى ما شاء الله.

وقد أقلمت عن التفكير في ماضي حياتها قبل أن تصبح ناظرة

ثم انحرفوا عن الطريق المساعد في الجبل إلى طريق جانبي يؤدي إلى القرية ، وكان هانوف في المقدمة يليه سيميون . وكانت الجياد الأربعة تتحول بسرعة ضئيلة وهي تجر وراءها العربات الثقيلة وسط الأوحال ، أما سيميون فقد كان يتأرجح من جانب إلى جانب في الطريق وكثيراً ما كان ينزل من العربة ليساعد حصانه الهزيل وكانت ماريا فاسيلينا ما تزال تفكر في المدرسة وفيما إذا كانت أسئلة الحساب ستأتي مناسبة لمستوى التلاميذ أو صعبة على أفهامهم .

وأحست في هذه اللحظة بالنعيب والاستياء من رجال المنطقة الذين لم يجد أحداً منهم في اليوم الفائت . ما أبدهم عن الشعور بمسئولية العمل ! لقد مر عامان وهي تطلب تغيير البواب الذي لا يقوم بأداء عمل ما ويعاملها معاملة خشنه ويضرب التلاميذ ؛ ولكن أحداً لم يعرفها التفاتاً . وكان من المتعذر عليها أن تجد خضرة المراقب في مكتبه ، فإذا وجدته بعد لأي أجابها والدموع في عينيه إنه لا يجد لحظة فراغ واحدة يبحث فيها الطلب !

أما المفتش فهو يزور المدرسة مرة كل ثلاثة أعوام ! ولم يكن يعرف عن طبيعة عمله شيئاً . فقد كان موظفاً في مصلحة الضرائب وحصل على وظيفة التفتيش بطريق الوساطة والاستثناء !

وكان راعي المدرسة مزارعاً يكاد يكون أمياً ، وكانت به جلافة وضيع عقل ، وكان صديقاً حميماً للبواب يحميه من كل سوء .

فلن نتقدم بشكواها وقد أوسدت أمامها الأبواب ؟ قالت لنفسها وهي تنظر إلى هانوف « إنه حقيقة ومسم » وزاد الطريق سوءاً . وكانت المجلات تفرق في الماء وتثير رشاشاً حاداً يضربهم في وجوههم . فقال هانوف وهو يضحك : « يا له من طريق ! »

وتأملته الناظرة حيناً فلم تستطع أن تدرك لماذا يعيش هذا الرجل العجيب هنا . وكيف يتناسب جاهه ووسامته وأبهة منظره مع هذا المكان الظلم القائم الفارق في العلين ؟ ليست له أية مصلحة في الحياة هنا ، ونها هو ذا يقود جياده في ذلك الطريق المتعب كما يفعل سيميون ويلاقى ما يلاقه هذا من نصب وعنت ... لماذا يبقى الإنسان هنا ما دام يستطيع أن يعيش في بطرسبورج أو في مدن القارة الكبرى ؟

لقد كان من الواضح أن هانوف لم يكن يحس وطأة هذه الحياة أو يرغب في أحسن منها . لقد كان عطوفاً ، لينا ، ساذجاً لا يدرك غلظة هذه الحياة ؛ كما كان - أثناء الإمتحان - لا يعرف موضوعات الإمتحان .

وأيظنها سيميون من تنكيرها حين صاح بها « أمسك بالعربة جيداً » فقد قفزت العربة فجأة وكادت تنقلب وأحست ماريا بشيء ثقيل يقع على قدمها فإذا هو حقيبتها وبداخلها ما ابتاعته من المدينة في الصباح . كان الطريق يصعد رأسياً في الجبل والأوحال تنطيه من كل جانب وكانت الخيل المجهدة تلهث من التعب فزّل هانوف وسار بجانب العربات وهو يسمح عرقه قائلاً « بالله من طريق ! » وضحك مرة أخرى وهو يقول . « إنه كفيل بأن يحطم العربة »

فرد سيميون بلهجة أدنى إلى التوقع « لا أحد يضطرك إلى الركوب في يوم كهذا . كان الأجدر بك أن تبقى في المنزل » فقال « إنني أضيق بالمنزل يا جدي ولا أحب البقاء فيه »

وكان يبدو بجانب سيميون المجوز رشيقاً متوفراً ومع ذلك فقد كان في مشيته شيء خفي يكشف عن بنيان بدأ يبد في الضعف والانحلال . وأحست ماريا بشعور يملؤها بالخوف والعطف على هذا الرجل الذي يسير في طريقه إلى الانحلال لغير ما سبب مفهوم . وخيل إليها أن لو كانت هي زوجته أو أخته لجعلت حياتها كلها وفقاً على إيقاعه مما هو فيه . زوجته ! لقد شاءت الظروف أن تجعله يعيش في بيته الفسيح منفرداً ويعيش هي في هذه القرية اللعينة بمفردها ومع ذلك فإن مجرد التفكير في أن يكون كلاهما بجوار الآخر مساوياً له يبدو أمراً مستحيل الوقوع .

في الحق إن ظروف الحياة وملابسات بني الإنسان قد ركبت تركيباً عجيباً يقف الإنسان أمامه حائراً عاجزاً عن تفهمه فإذا لم يجد له حيلة عاد مثقل الفؤاد .

قالت لنفسها وهي تنكر في ذلك « إنه لمن أخفى الأمور وأصعبها فهما أن يعطى الله هذا الجمال وهذه الرشاقة وتلك العيون الحزينة الجميلة لقوم ضعفاء تمت حظوظهم فلا يصلحون لشيء لماذا ... لماذا يحمل الله فيهم كل تلك الفتنة الجذابة ؟ »

قال لها هانوف وهو يستقل العربة « هنا يجب أن انحرف إلى

الشرق . وداعاً ! أرجو لك كل شيء حسن ! »

وعادت تفكر في التلاميذ وفي الامتحان وفي البواب وحين نقلت الريح إلى سمعها صوت العجلات البتعدة اختلطت أفكارها تلك بأفكار أخرى . وأحست بالشوق الجارف إلى التفكير في العينين الجيليتين ، وفي الحب ، وفي السعادة التي لن تكون زوجته ؟

لقد كانت تحيا حياة قاسية . الجو بارد في الصباح ، ولا أحد يوقد الموقد ، وقد اختفى البواب ، والتلاميذ يتوافدون بمجرد ظهور الضوء يحملون قطعاً من الثلج والطين ويتعاطمون في ضجة عظيمة . كل شيء متمب مقلق للأعصاب . وكان مكانها يتكون من غرفة واحدة صغيرة يتبعها المطبخ . وكانت تشعر بالصداع بعد انتهاء العمل ويصيبها الإلتهاب بعد كل أكلة . وكان عليها أن تجمع النقود من الأطفال للخشب والبواب وأن تعطىها لراعى المدرسة ثم ترجوه — وهو ذلك الفلاح الغليظ — أن يرسل إليها الخشب . وفي الليل كانت تحلم بالامتحانات والفلاحين والمواصف الثلجية ... ما أقسى هذه الحياة التي تسرع بها إلى الهرم وتجعلها تبدو قبيحة معدودة ثقيلة كأنما خلقت من رصاص . لقد كانت أبداً خائفة قلقه . وكانت تنتفض واقفة ولا تجسر على الجلوس في حضرة أحد موظفي المراقبة أو راعى المدرسة . وتستعمل العبارات الرسمية والتحيات المبهجة في حديثها معهم .

ولم يكن أحد يظنها جذابة . وكانت حياتها تمر جافة مرعبة بغير عاطفة حية ولا إحساس صداقة ولا معارف يشاركونها بعض هموم الحياة .

يا أعجب حياتها لو وقعت في الحب وهي في حالتها تلك !

« أمسكي جيداً ياماريا ! »

مصعد آخر في الجبل .

لقد أصبحت ماريا نازرة تحت ضغط الضرورة . ولم تكن تشعر بأي ميل لهذه المهنة . ولم تنجس قط إلى مهنة بعيثها ولا كانت تفكر في خدمة ذلك النرض النبيل : غرض التعليم والتثقيف . وكان يخيل إليها دائماً أن المهم في الأمر كله ليس هو التلاميذ ولا التعليم وإنما هو الامتحان .

ومن أين لها الوقت لتفكر في شرف المهنة وفي خدمة الثقافة ؟

إن المدرسين والأطباء ضئال الأجور ، بما يرزحون تحته من أعباء مرهقة عنيفة ، لا يحدون ما يخفف عنهم ، ولا حتى الاعتقاد بأنهم يخدمون فكرة عليا أو يخدمون الناس ، ما دامت رءوسهم دائماً مشغولة بالتفكير في أمر القوت اليومي وفي المرض وفي سوء حالة المواصلات ...

إنها حياة شاقة مملة ، لا يستطيع احتياها طويلاً إلا « حمير الشغل » من أمثال ماريا فاسيلقينا . أما أولئك المتوفزون الذين تندفق الحياة في جنوبهم والذين يحدثون عن شرف المهنة وعن خدمة الأغراض النبيلة فسرعان ما يدركهم السلل من التدريس فينفضون أيديهم منه .

كان سيميون يجعل باله دائماً إلى اختيار أخصر الطرق وأكثرها استفادة ولكنه كان يجد العراقيل دائماً في الطريق ، فهنا أحد الفلاحين لا يسمح له بالمرور ، وهناك أرض القسيس لا يخترقها أحد ، وفي جهة ثالثة قد اشترى بعضهم قطعة أرض وحفر حولها حفرة فلا سبيل إلى عبورها ، وهكذا كان يضطر بين الحين والحين إلى تغيير طريقه ووجهته .

ومروا في أثناء الطريق على قرية « نيزهناى جورود يتشى » فقال سيميون « لقد كانوا يبنون مدرسة هنا أخيراً . وكان هذا عملاً سيئاً جداً ! »

فقالت ماريا باستغراب « لماذا ؟ »

« يقولون إن المراقب أخذ ألف جنيه في جيبه وأخذ راعى المدرسة ألفاً أخرى وأخذ المدرس خمسمائة »

« لقد تكلفت المدرسة كلها ألف جنيه . فمن الخطأ يا جدى أن تقترى على الناس مثل هذه الأكاذيب »

لا أدري ... وإنما أخبرتك بما سمعت من الناس »

ولكن كان من الواضح أن سيميون لم يصدق النازرة . ولم يكن الفلاحون يصدقونها كذلك . فقد كانوا يعتقدون أنها تأخذ راتباً ضخماً : عشرين روبل (وكان يكفيها خمسة) وأنها كانت تأخذ لنفسها معظم المال الذي تجمعته من التلاميذ باسم الخشب وباسم البواب ، وكان راعى المدرسة يمتد ذلك أيضاً ، وكان هو بدوره يجعل لنفسه ربحاً من المال المجموع للخشب ، وكان يأخذ

وكانت نوافذ المحطة تمتع كذلك في الضوء والدخان الأسود يرتفع من مدخنة القاطرة ... وخيل إليها أن كل شيء يرتعد من البرد ! وأخيراً جاء القطار . وكانت نوافذه تعكس النور في عينيها فتشبهها . وبينما هي تتحدق في العربات السائرة أمامها على مهل أبصرت بين عربتين من عربات الدرجة الأولى سيدة واقفة فتأملتها وهي تمر بها . يا للعجب ! أمها ! ما أشبهها بها ! لقد كان لأما مثل هذا الشعر الفخم ومثل هذين الحاجبين وكانت ثنيات وجهها تشبه هذا الوجه إلى حد كبير .

ولأول مرة منذ ثلاثة عشر عاماً برزت أمام مخيلتها بوضوح عجيب ودقة تامة صورة أمها ، وأبيها وأخيها ، ومنزلهم في موسكو وكل شيء من الماضي بتفاصيله الدقيقة . وسمعت من أعماق ذلك الماضي نغمات البيانو تنبعث في الفضاء وصوت أبيها يناديها وأحست — كما كانت تحس إذ ذاك — أنها شابة جميلة ، رشيقة ، وخيل إليها أنها جالسة في غرفتها الدافئة على كرسي وثير وحولها أقاربها وغمرها شعور مفاجئ بالشر والسعادة فعمرت خديها بيدها في نشوة عارمة ونادت هامسة في ضراعة « أماه ! »

وطفقت تبكي . لا تدري لم ؟ وفي تلك اللحظة ذاتها وصل هانوف بعربته وجياده الاربعة . وما أن رأى أنه حتى أحست بالسعادة كما لم تحس من قبل أبداً . وابتسمت وهزت رأسها بحية له باعتباره صديقاً ونداً لها . وخيل إليها أن سعادتها بل انتصارها يملأ الفضاء من كل جانب ويلعب في النوافذ وفي الأشجار وعلى أوراق الزهور ! وأن أباه وأما لم يموتا أبداً وأنها لم تكن قط ناظرة مدرسة . وأن هذا كله كان حلاً مزججاً طويلاً أفادت منه هذه اللحظة

« اركبي يا ماريا ! »

ونجاة انتهى كل شيء . ورفع الحاجز ببطء وصعدت ماريا إلى العربة وهي ترتعش من الصقيع . وعبرت العربة ذات الجياد الاربعة خط السكة الحديد وتلاها سيميون . ورفع عامل الإشارة قبعته بحياء . « ها هي فيازوفيا . وها نحن أولاء . »

محمد قطب

هبات من الفلاحين بصفه كونه راعي المدرسة بدون علم السلطات المختصة ..

وأخيراً خرجوا من الغابة إلى الطريق المستوى الذي يؤدي إلى فيازوفيا ، وكان عليهم أن يعبروا النهر ثم خط السكة الحديد فيسبحوا على مرمى البصر من فيازوفيا .

قالت ماريا « إلى أين أنت ذاهب ياسيميون ؟ خذ الطريق الأيمن إلى الجسر »

« نستطيع أن نذهب من هذا الطريق أيضاً . وليس النهر عميقاً هنا » ، « واحذر أن تفرق الحصان »

« ماذا ؟ » فقالت : ماريا وقد رأت الجياد الأربعة عن بعد : « انظر إن هانوف في طريقه إلى الجسر . إنه هو ، أليس كذلك ؟ » « نعم : فهو إذن لم يجد با كفت في منزله . ألا ما أغباه ! لأى شيء قاد عربته إلى هناك وكان يستطيع أن يجي من هنا فيوفر على نفسه ميلين كاملين »

ثم وصلوا إلى النهر . وهذا النهر يصبح في العيف جدولاً صغيراً يسهل عبوره ويجف عادة في شهر أغسطس ، أما الآن بعد ذوبان الثلوج فإن عرضه يصل إلى أربعين قدماً وهو سريع الجريان كثير الرحل بارد المياه

صاح سيميون في حصانه وهو يجذب اللجام بحدة وعنف « هلم ! أسرع ! » فنزل الحصان في الماء حتى بطنة ثم وقف ؛ ولكنه مالبث أن تحرك بجهد عظيم ، وأحست ماريا بالصقيع في قديمها فصاحت هي الأخرى « أسرع ! أسرع ! » .

وحين وصلوا إلى الضفة الأخرى كان حذاؤها قد امتلأ بالماء وابتل أسفل رداها وأخذ أحد أكتافها يقطر ماء . واختلط الماء بالسكر والدقيق اللذين اشتريتهما من المدينة ، وكان هذا فوق ما تطيقه ماريا ولكنها لم تجد لها حيلة إلا أن تشبك أصابع يديها في يأس وتصيح « إنك متعب ، متعب ياسيميون . كم أنت متعب ! » وكان الحاجز الذي يفلق المرقد أترق قبل أن يجي القطار من المحطة فوقفت ماريا تنتظر مرور وجهها كله يرتعد من البرد . وكان أمامها على مدى النظر قرية فيازوفيا والمدرسة بسقفها الأخضر والكتيبة بصلبانها اللامعة في ضوء الشمس النارية